عبد كناعنة (*)

إسرائيل بين المقاومة والجهاد: عن المواجهة بين فكرين (حزب الله والأحزاب التكفيرية كمثال)

تحول الربيع العربي ومنذ مدة إلى خريف سقط خلاله عشرات آلاف الضحايا في طول الوطن العربي وعرضه. وتعتبر الحرب الأهلية الدائرة اليوم في سورية إحدى النقاط الأكثر سخونة في هذا الحراك العربي المتوهج. ولعل أبرز ما يلفت النظر في المعركة الدائرة في سورية هو التصادم المباشر بين مجموعتين كانتا (ولا تزالان) تعتبران لدى الغرب وإسرائيل بشكل خاص «قوى إرهابية» لهما الأجندة نفسها، والتي تريد محو إسرائيل عن الوجود.

عندما أتحدث عن هاتين المجموعتين فأنا أقصد بالأساس حزب الله وقوى المقاومة من جهة والحركات التكفيرية والجهادية السنية من الجهة الأخرى والتي لها صلة من قريب أو من بعيد مع تنظيم القاعدة العالمي.

سأحاول في هذا المقال إعطاء إطار مختلف للصراع الدائر في الشرق الأوسط بشكل عام وفي سورية ولبنان بشكل خاص وكيفية انعكاس هذا الصراع على إسرائيل والتقديرات الإستراتيجية الإسرائيلية الأخيرة. عل هذا النوع من الإطار يمكننا من استيعاب الفروقات الجدية بين «المنظمات الإرهابية» (حسب التوصيف الإسرائيلي) المختلفة التي «تحارب» أو «تنوي أن تحارب» إسرائيل في المستقبل البعيد.

القيادة الإسرائيلية بين المقاومة والجهاد

كشفت صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية مؤخرا مقاطع من التقرير السنوي الاستخباراتي للوضع الجيو- سياسي لإسرائيل خلال العام الأخير. وقد اتسم التقرير الجديد لهذا العام بنظرة متفائلة بالنسبة للوضع الأمني لإسرائيل. حيث

(*) طالب دكتوراه في جامعة تل أبيب.

حزب الله: أكثر من انعطافة حادة.

اعتبر التقرير أن الجيوش العربية التي كانت من الممكن أن تشكل تهديدا على كيان إسرائيل مشغولة جميعها في مشاكل وفي حروب داخلية وبالأساس مع القوى والجماعات الجهادية والتكفيرية المختلفة. حيث أن هذا هو الوضع في مصر وفي العراق وفي سورية وهي الدول الثلاث التي كانت تاريخيا الأقوى والأكثر تصادما مع إسرائيل.

يشير التقرير الإسرائيلي من الجهة الأخرى إلى أن قوى المقاومة وبالأساس حزب الله قد تم «إلهاؤها» بالوضع الأمني المعقد في سورية ولبنان. وعلى الرغم من كون حزب الله لم يتأثر جديا وبشكل عميق من المعارك الدائرة في سورية (بحسب تقديرات التقرير) إلا أن التقرير يعتبر أن مجرد إلهاء حزب الله في هذه المعارك يحسن من وضع إسرائيل الاستراتيجي.

ويختتم التقرير الإسرائيلي تقديراته بأن الخطر الاستراتيجي الأساس على إسرائيل يكمن اليوم بالخطر النووي الإيراني خصوصا بسبب التقدم الملحوظ الذي حققه الرئيس الإيراني الجديد «روحاني»، من خلال وصوله إلى تفاهمات جدية مع الإدارة الأميركية والاتحاد الأوروبي في محادثات جنيف المتعلقة بالنووي الإيراني.

ويؤكد تقرير آخر لموقع استخباراتي إسرائيلي هو موقع «تيك ديبكا» أن محور إيران–سورية– حزب الله يحقق إنجازات حقيقية على الأرض في الملف السوري وفي الملف النووي الإيراني وهو الأمر الذي يعطي لهذا المحور نقاط تقدم حقيقية تثير المخاوف لدى الاستخبارات الإسرائيلية، وتشاركها الخوف ، بحسب المصادر الإسرائيلية، الاستخبارات السعودية التي هي الأخرى تقف إلى جانبه وتمول مجموعات تكفيرية مختلفة خصوصا في سورية ولبنان حيث تحاول السعودية كسر ظهر النظام السوري من جهة وتعزيز مواقع حلفاء السعودية في الداخل اللبناني من

لعل نشوء حزب الله في الساحة اللبنانية بالذات، وهي الساحة الأكثر تعددية سياسيا، طائفيا واجتماعيا بين الدول العربية، وكذلك هي الساحة التي حافظت لسنوات طويلة على جذوة الصراع العربي الإسرائيلي متقدة في السبعينيات والثمانينيات وما تلتها، قد أثر على نشوء هذا النوع من «الحركات الإسلامية» المنفتحة والقابلة للتغيير والمستعدة للتفاهم والتحاور مع قوى أخرى ضمن إطار الوطن الواحد والهدف الواحد، وهو الأمر غير الموجود لدى الأحزاب والحركات التكفيرية والتي نشأت في بيئة أكثر انغلاقا مثل السلفية الجهادية.

قوى ١٤ آذار من خلال ضرب النظام السوري وحزب الله اللبناني المتحالف معه.

اعتبرت المؤسسات الإسرائيلية في تقديرات استخباراتية وحتى أكاديمية سابقة أن الحركات الإسلامية الجهادية المختلفة هي حركات معادية لإسرائيل ويجب محاربتها بالمقدار ذاته. ولعل البحث الذي قام بإعداده الباحث الإسرائيلي ميخائيل ميلشطاين من معهد أبحاث الأمن القومي (INSS) الإسرائيلي من العام ٢٠٠٩ حول قوى المقاومة تحت عنوان: المقاومة: ارتفاع شأن تحدي المقاومة وتأثيره على نظرة الأمن القومي الإسرائيلي، والذي وضع جميع الحركات التكفيرية والجهادية تحت عنوان المقاومة، هو أبرز هذه التقديرات التي لم تميز بشكل جدي بين حركات المقاومة من جهة وبين حركات الجهاد والتكفير من الجهة الأخرى واضعة الجميع في سلة واحدة من المنظور الإسرائيلي.

لم تكن هذه التقديرات والتي وضعت حزب الله والقاعدة في السلة ذاتها تحتاج إلى الكثير من الوقت ليتضح أنها غير صحيحة وغير ممكنة. فلا يمكن وضع هذين التنظيمين أو الحركتين في ذات السلة لأسباب عدة سأتطرق لها لاحقا، ولكن حتى من الناحية الإسرائيلية نرى تحركا وتغيرا في توجه المؤسسات الأمنية الإسرائيلية للحركات الجهادية ولحركات المقاومة وتقييمها لها، ولعل اندلاع التحركات لما أصطلح على تسميته بالربيع العربي في بداية العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين أضفى المزيد وأظهر بشكل أوضح التباين الكبير ما بين الحركات الجهادية من جهة وبين حركات المقاومة من الجهة الأخرى.

يمكننا إمعان النظر في التقرير الاستراتيجي الإسرائيلي الذي نشرته صحيفة «يديعوت أحرونوت» من استشفاف، بشيء من الحرص، أن القيادة الإسرائيلية وخصوصا القيادة الأمنية الإسرائيلية تجد في قوى «الجهاد» وخصوصا تلك المدعومة من المخابرات السعودية حليفا مرحليا للوقوف في وجه قوى «المقاومة»، خصوصا وأن إسرائيل والسعودية هما القوتان الأكثر وضوحا في وقوفهما ضد التفاهمات الدولية التي بدأت بالتبلور مع إيران حول ملفها النووي وحول الملف السوري.

لا يعني هذا الأمر أن هذا التحالف أو التقاء المصالح، أن صح التعبير، الآني بين إسرائيل من جهة وبين الحركات الجهادية التكفيرية من الجهة الأخرى يعتبر تحالفا استراتيجيا على المدى الطويل، ولكن ولطبيعة هذه الحركات التي تركز قوتها ونشاطها على الأعداء الداخليين في بلدانها الإسلامية أولا، وفقط بعد ذلك على القوى الخارجية، تعتبر هذه الحركات الأفضل ما بين نارين أو ما بين سيئين بالنسبة لإسرائيل.

في هذا السياق، من المهم متابعة ومعرفة طبيعة العلاقة القائمة بين حزب الله من جهة والحركات الجهادية والتكفيرية من جهة أخرى، للوقوف على سبب تلاقي المصالح الآني بين إسرائيل والحركات الجهادية، ولمعرفة إن كان هذا التلاقي للمصالح يمكن أن يستمر على المدى البعيد أيضاً.

حزب الله والحركات التكفيرية

قد يصاب المتابع للمشهد الشرق أوسطي بالارتباك لكون الإسلاميين من مختلف الأطياف يتصادمون من غير رحمة في سورية، مع العلم أن كلا الطرفين يرفع شعارا إسلاميا سياسيا يدعو من خلاله إلى الاحتكام إلى شرع الله ورسوله في دولة واحدة إسلامية يكون للشريعة فيها اليد الأطول والحكم النهائي.

وقد يعتبر البعض أن الحرب الدائرة اليوم في سورية ولبنان وإلى حدّ ما في العراق ما هي إلا حرب طائفية يصطف بها السني ضد الشيعي بمعناه الواسع ليضم العلوي وحتى الأقليات المسيحية في هذه البلدان. ولكن المتتبع لمسار تطور هذه الحركات الإسلامية ذات المنابع المختلفة يمكنه الإشارة بشكل واضح إلى أن هناك فروقا شاسعة ما بين منظري حركة مثل حزب الله من

الحركات الجهادية السنّية: مشهد من العراق.

جهة وما بين منظري الحركات الإسلامية الأصولية التكفيرية من جهة أخرى.

إن الفروق ما بين حزب الله وبين الحركات الإسلامية التكفيرية التي تواجهه في لبنان وفي سورية تمتد إلى تاريخ هذه الحركات والفروق الشاسعة ما بين الأرضية التي نشأت عليها حركة حزب الله من جهة والحركات التكفيرية من الجهة الأخرى.

الحركات الجهادية السلفية

لعل نشوء حزب الله في الساحة اللبنانية بالذات، وهي الساحة الأكثر تعددية سياسيا، طائفيا واجتماعيا بين الدول العربية، وكذلك هي الساحة التي حافظت لسنوات طويلة على جذوة الصراع العربي الإسرائيلي متقدة في السبعينيات والثمانينيات وما تلتها، قد أثر على نشوء هذا النوع من «الحركات الإسلامية» المنفتحة والقابلة للتغيير والمستعدة للتفاهم والتحاور مع قوى أخرى ضمن إطار الوطن الواحد والهدف الواحد، وهو الأمر غير الموجود لدى الأحزاب والحركات التكفيرية والتي نشأت في بيئة أكثر انغلاقا مثل السلفية الجهادية التي حصلت ولا زالت تحصل على رعاية النظام السعودي، والتي تم تصديرها إلى أجزاء مختلفة من العالم العربي والإسلامي مثل مصر، العراق، سورية، لبنان وفلسطين، مع العلم أن هذه البلدان وبسبب الطبيعة الاجتماعية فيها لا تعتبر موطنا أصليا أو حاضنة طبيعية لهذه الحركات المتشددة.

تم بناء الحركات الجهادية بطبعتها الجديدة على الأراضي الأفغانية أثناء نشاط هذه الحركات ضد التدخل السوفييتي في أفغانستان خلال ثمانينيات القرن العشرين، ومن ثم ومع انتهاء المهمة التي كانت ملقاة على عاتق هؤلاء الشباب، عادوا بالآلاف إلى مواطنهم الأصلية للبدء «بالجهاد» داخل وضمن حدود دولهم الوطنية ليتحول جهادهم ضد التدخل الخارجي (التدخل السوفييتي وبغض النظر عن دعمهم من قبل أجهزة خارجية مثل الولايات المتحدة، السعودية وباكستان) إلى «جهاد» ضد الدولة «الكافرة» التي يعيشون بها هم أنفسهم، وهكذا تم خلق تنظيمات تستقي أفكارها من الفقه السلفي المتشدد والذي يعتبر جميع الدول الوطنية طالما أنها تحتكم إلى قوانين وضعية من صنع الإنسان ولا تحتكم إلى الشريعة الإسلامية كما فسروها هم، هي دول جاهلية وكافرة تماما كما اعتبرها سيد قطب، أحد المنظرين

بالمقابل، تتنازل الحركات التي ترفع راية «الجهاد» الداخلي أولا عن قطاعات واسعة من الشعوب التي تعمل داخلها، وتتنازل حتى عن مجتمعاتها التي تعتبرها مجتمعات «جاهلية» يجب القيام عليها وتدميرها كليا حتى الجذور لبناء مجتمع إسلامي طوباوي يستقدم قوانينه ونظامه من الشريعة الإسلامية بحسب مفهومهم هم لهذه الشريعة.

الأساسيين لهذه الحركات، والذي اعتمد في تنظيره على كتابات ابن تيمية من القرن الرابع عشر.

وكما هو معروف، يفتقر هذا التوجه إلى أي بذور لمحاولة التأقلم أو التوافق مع القوى الأخرى الفاعلة ضمن النظام الوطني في هذه البلدان، حيث يؤكد سيد قطب في كتابه «معالم على الطريق»: «إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته، وألا نعدّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه في منتصف الطريق... وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج ونفقد الطريق».

بالنسبة لهذه الحركات فإن كل المجتمعات الإسلامية القائمة اليوم هي «مجتمعات جاهلية» يجب الخروج عليها والجهاد ضدها، وبالتالي تلقي هذه المجموعات جل اهتمامها وقوتها ونشاطها ضد مجتمعاتها هي ولتدخل رافعة راية الجهاد ضد الأنظمة وخصوصا إذا كانت هذه الأنظمة علمانية أو ذات توجه علماني كما هو الأمر في سورية أو حتى إسلامية مخالفة للسلفية الجهادية كما هو حال حزب الله في لبنان.

المقاومة مقابل الجهاد

من المعروف أنه بخلاف الجهاد فأن المقاومة هي مصطلح غير قرآني. بمعنى أن مصطلح المقاومة بمفهومه الحالي لم يرد ولو مرة واحدة في النص القرآني. لكن وعلى الرغم من ذلك فان هذا المصطلح «طبع» حركات إسلامية مختلفة وتحول إلى جزء لا يتجزأ من اسمها الرسمي، مثل حزب الله في لبنان مستعيضا بهذا المصطلح العلماني عن مصطلح الجهاد وإن لم تتنازل هذه الحركات عن الجهاد تماما بل وجدت للمقاومة تخريجا فقهيا خاصا بحيث أصبح يستعاض به عن الجهاد، علما أن هناك فرقا في التفسير الفقهي ما بين علماء السنة وعلماء الشيعة لمتى يصح إعلان الجهاد وعلى من يصح فعل ذلك.

ففي حين يسمح الفقه السني حتى اليوم بإعلان الجهاد الابتدائي أو الهجومي على الكافرين يحرم الفقه الشيعي هذا الجهاد طالما أنه لم يكن على رأس جيوش المسلمين النبي محمد (ص) أو واحد من الأئمة ال-١٢ المعصومين. ويذهب المحافظون من رجال الدين الشيعة إلى جر هذا الحكم على جهاد الدفع أيضاً. لكن المحدثين من رجال الدين الشيعة وبالأساس المدرسة الأصولية في الفقه الشيعي، أفتت بوجوب جهاد الدفع حتى ولو لم يكن على رأس المسلمين أحد الأئمة، وذلك لحماية المسلمين وأموالهم وأعراضهم.

ما أدعيه في هذه العجالة أن استعمال المصطلحات ليست استعمالات عرضية ومن دون معنى، ولكن ما أحاول تأكيده هنا أن استعمال المصطلحات يدل على موقف هذه الحركات ومدى انفتاحها أو انغلاقها على الآخر وعلى الشريك في الوطن وحتى في الدين.

يعتبر حزب الله إلى حدّ كبير ممثل قيم المقاومة بمفهوم التواصل مع القوى المختلفة إن كانت علمانية أو إسلامية على أساس تقديم المقاومة للاحتلال الغربي والإسرائيلي بشكل خاص على كل ما سواها من قضايا. أي أن حزب الله بتأكيده وتقديمه مفهوم المقاومة أو (الجهاد الدفاعي كما تم تخريجه من ناحية فقهية) فهو يقدم المشترك والموحد على المختلف والمفرق داخل الوطن الواحد وحتى داخل العالم العربي ككل.

في حين يأخذ أصحاب الحركات التكفيرية «الجهاد» كفعل قطع مع المجتمعات التي تعيش بكنفها وكفعل رفع لراية «الثورة» على كل من لا يتوافق تماما وكليا مع رؤاها، وتأخذ هذه الحركات «الجهاد» إلى أقصى حدوده بمواجهتها للقوى الأخرى «الكافرة» داخل حدود الوطن الإسلامي، وهو الأمر الذي يتجلى بأقسى وبأقصى تجلياته في الحرب الدائرة في سورية والآخذة بالانزلاق رويدا رويدا إلى داخل الحدود اللبنانية.

بالتالي، وبناء على ما تقدم يمكن اعتبار القوى الإسلامية والعلمانية التي ترفع راية المقاومة، وتحول المقاومة بمفهومها الشامل والواسع إلى هدف استراتيجي وإلى محور لخلق تحالفات وتعاملات مع القوى المختلفة داخل وخارج أوطان هذه القوى، بمثابة

بالمقابل، تتنازل الحركات التي ترفع راية «الجهاد» الداخلي أولا عن قطاعات واسعة من الشعوب التي تعمل داخلها، وتتنازل حتى عن مجتمعاتها التي تعتبرها مجتمعات «جاهلية» يجب القيام عليها وتدميرها كليا حتى الجذور لبناء مجتمع إسلامي طوباوي يستقدم قوانينه ونظامه من الشريعة الإسلامية بحسب مفهومهم هم لهذه الشريعة.

قوى منفتحة على الآخر، تملك تصورا وطنيا وقوميا وإسلاميا يستوعب التعددية القائمة في المجتمعات شرق الأوسطية وبالتالي تعي هذه القوى القدرة التحشيدية لمقدرات شعوب المنطقة المختلفة ومكونات هذه الشعوب المختلفة: دينيا، طائفيا، اجتماعيا وقوميا.

بالمقابل، تتنازل الحركات التي ترفع راية «الجهاد» الداخلي أولا عن قطاعات واسعة من الشعوب التي تعمل داخلها، وتتنازل حتى عن مجتمعاتها التي تعتبرها مجتمعات «جاهلية» يجب القيام عليها وتدميرها كليا حتى الجذور لبناء مجتمع إسلامي طوباوي يستقدم قوانينه ونظامه من الشريعة الإسلامية بحسب مفهومهم هم لهذه الشريعة.

ولكن، هل يمكن اعتبار أن الحركات المقاومة كانت دائما حركات مقاومة؟ أو بالأصح هل يمكن القطع نهائيا ما بين التوجه الجهادي والديني لحركة معينة وما بين النظرة المقاومة من الجهة الأخرى؟ في اعتقادي أن الأمر ليس حادا بالشكل الذي نتصوره، وإنما يمكن أن نرى أن هناك حركات مثل حزب الله على سبيل المثال، والتي بدأت حياتها بتوجه «جهادي» صرف، تحولت وتطورت مع مرور الزمن وتغير حيثيات الواقع السياسي في لبنان والمنطقة، إلى حركة مقاومة أساسية في المشهد الإقليمي وحتى الدولي.

مسيرة نشوء حزب الله وتطوره من الجهاد إلى المقاومة

اكتسب حزب الله، نظراً للظروف التي أحاطت به خلال السنوات الأولى لتكوينه، وهي سنوات الحرب الأهلية المستعرة من جهة والاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان من الجهة الأخرى، وكذلك فترة انتصارات الثورة الإسلامية في إيران وتنامي تأثير الثورة الإيرانية على فئات آخذة بالاتساع في التجمعات الشيعية في الدول العربية لاسيما في لبنان، في بادئ الأمر، توجهًا راديكالياً وجهاديا لا يقبل المساومة.

يمكن ملاحظة هذا التوجه غير المساوم من قبل الحزب المولود حديثاً من خلال الاسم الرسمي للحزب والذي أطلق عليه: "حزب الله: الثورة الإسلامية في لبنان». كما هو واضح من الاسم وكذلك فيما بعد من الرسائل الكتابية والعملية التي وجهها الحزب إلى المواطنين في لبنان وإلى العالم أجمع، أن الحزب بصدد برنامج عمل ثوري ليقلب نظام الحكم الكتائبي الذي ولد الحزب في فضائه، والذي كان يعتبر بحسب وجهة نظر قيادة حزب الله في ذلك الوقت بمثابة نظام فاقد لأي شرعية، ويجب قلبه والاطاحة به بشكل كامل.

ولعل الجو الثوري الذي ولد داخله حزب الله كان هو صاحب أقوى الأثر في الرؤية السياسية والوطنية التي شكلت وعيه في ذلك الوقت، فأراد قلب النظام من رأسه، وخلق نظام جديد لا مكان داخله للسلطة الكتائبية وللقيادات التي يأخذ عليها الحزب دورها بالتعاون مع الاجتياح الإسرائيلي للبنان، والتعاون مع الدول الاستعمارية الغربية كما يصفها حزب الله في رسالته المفتوحة والعلنية الأولى، وهي الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا بالأساس.[1]

يعتبر حزب الله في رسالته المفتوحة أن هدفه الأساس إسقاط النظام من جهة ومن الجهة الأخرى فهو يدعو إلى قيام الشعب بكل أطيافه وبمنتهى الحرية لاختيار النظام الذي يرتئيه مع عدم إخفاء حزب الله لرؤيته أن النظام الأنسب والأفضل من غيره هو النظام الإسلامي على نسق الجمهورية الإسلامية في إيران.

حزب الله، وعلى الرغم من رؤيته للبنانيين غير المسلمين جزءاً من الشعب اللبناني، إلا أنه اعتبرهم أقل مكانة، حيث دائماً ما دعاهم لكي يدخلوا في الإسلام لكي يحصلوا على هناء العيش على الأرض وفي الآخرة، وقد أعلن على سبيل المثال السيد ابراهيم أمين السيد أحد قيادات حزب الله ومؤسسيه في العام ١٩٨٨ في الذكرى التاسعة لانتصار الثورة الإسلامية في إيران: «أن الشعب المسلم في لبنان لا يقبل أن يصبح جزءاً من المشروع السياسي لآخرين (الدولة اللبنانية ذات الهيمنة المارونية) يعملون لصالح رئيس النظام الماروني؛ بل على الآخرين أن يجدوا مكاناً لنفسهم في مشروع الإسلام".

دفع وصول الحرب الأهلية اللبنانية إلى نهايتها في العام ١٩٩٠

وأثر انتقال حزب الله من المعارضة الثورية والجذرية للنظام السياسي في الدولة اللبنانية إلى المشاركة في النظام السياسي (وأن كانت محدودة بدايةً) على الرؤية الوطنية للحزب، وعلى توجهه الاستراتيجي والسياسي للدولة اللبنانية ولموقفه الخاص من الدولة اللبنانية ولشركائه في الوطن اللبناني، وقد غير حزب الله الاسم الرسمي ليتحول إلى حزب الله: المقاومة الإسلامية في لبنان. حيث تحولت قضية المقاومة إلى القضية الأساس التي لأجلها يعيش هذا التنظيم، مع الانتباه لاحقا إلى أن هذه المقاومة حملت في طياتها أبعادا أكبر وأوسع من البعد العسكري الصرف، وهو الأمر الذي أكدت عليه قيادة الحزب مرارا وتكرارا.

ومع توقيع اتفاق الطائف ووفاة الخميني في إيران حزب الله رويداً رويداً وقيادته إلى تغيير رؤيته السياسية ورؤيته الوطنية اللبنانية. وبغض النظر عن اعتبار هذه التغييرات تحركات براغماتية من قبل الحركة للحصول على شرعية في الدولة اللبنانية الجديدة كما يدعي الباحث الإسرائيلي ايتان عزاني.[٢] أو أن هذا التغير هو تغيير طبيعي ونابع من الخلفية الإسلامية– اللبنانية المشتركة لحزب الله منذ البداية كما يدعي الباحث اللبناني يوسف الآغا، فما من شك أن حزب الله ومنظريه قد قطعوا شوطاً كبيراً باتجاه تغيير مفهومهم ورؤاهم للوطنية اللبنانية، بحيث تتحول نظرة الحزب إلى نفسه من حزب إسلامي (للطائفة الشيعية) إلى حزب لبناني وطني ذي رؤية إسلامية في المرحلة اللاحقة.

حزب الله ما بعد نهاية الحرب واتفاقية الطائف

وقف حزب الله ما بعد الطائف، وخصوصاً في العام ١٩٩٢، على مفترق طرق، فإما أن يستمر بالعصيان على الدولة اللبنانية ومحاولة قلبها والثورة عليها وإما الانخراط باللعبة السياسية اللبنانية ومحاولة الوصول إلى التغيير المنشود للنظام في لبنان من القاعدة وليس من الرأس كما كان الحال خلال الحرب الأهلية والمرحلة الثورية لحزب الله في البدايات.

اختار حزب الله الخط الثاني وذلك بتقاطع عدة عوامل، منها الذاتية الداخلية ومنها الخارجية المرتبطة بالتغيير السياسي في القيادة الإيرانية بعد وفاة الإمام الخميني. وقد اضطرت قيادة حزب الله، وبعد أن انقسمت ما بين مؤيد ومعارض للدخول إلى الحياة السياسية والبرلمانية اللبنانية ما بعد الطائف، لأن تستفتي في أمرها «الولي الفقيه» الخامنئي والذي رجح من جهته كفة أولئك الذين آثروا المشاركة في الانتخابات البرلمانية وعلى رأسهم الأمين العام للحزب حسن نصر الله، في مقابل المجموعة الأكثر تشدداً والتي كانت بقيادة الأمين العام الأول للحزب الشيخ صبحي الطفيلي.

وأثر انتقال حزب الله من المعارضة الثورية والجذرية للنظام السياسي في الدولة اللبنانية إلى المشاركة في النظام السياسي (وأن كانت محدودة بدايةً) على الرؤية الوطنية للحزب، وعلى توجهه الاستراتيجي والسياسي للدولة اللبنانية ولموقفه الخاص من الدولة اللبنانية ولشركائه في الوطن اللبناني، وقد غير حزب الله الاسم الرسمي ليتحول إلى حزب الله: المقاومة الإسلامية في لبنان. حيث تحولت قضية المقاومة إلى القضية الأساس التي لأجلها يعيش هذا التنظيم، مع الانتباه لاحقا إلى أن هذه المقاومة حملت في طياتها أبعادا أكبر وأوسع من البعد العسكري الصرف، وهو الأمر الذي أكدت عليه قيادة الحزب مرارا وتكرارا.

يرى الباحث يوسف الآغا أن هناك تطوراً قد حصل عند حزب الله في الفترة الأخيرة، أي فترة ما بعد اتفاق الطائف. ويمكن ملاحظة تغييرات في تعامله مع ركائز أساسية في فكره فعلى سبيل المثال:

- **الدولة الإسلامية:** كان حزب الله في المراحل الأولى لوجوده يعتبر أن القرآن يشكل دستور الأمة الإسلامية فيما يعتبر الإسلام نظام الدين والدولة. لذا حث حزب الله المسلمين على الكفاح مستخدمين كافة الوسائل الشرعية لتطبيق النظام الإسلامي حيثما وجدوا...كما اعتبر أن النظام السياسي الذي يسيطر عليه الموارنة السياسيون نظام جاهلي.

بينما بدأ حزب الله في الحلة الجديدة توجيه حرابه إلى الطائفية السياسية والتي يشارك فيها السنة والشيعة

على حدٍ سواء، داعياً إلى إصلاح النظام السياسي وفق خطوط الغاء الطائفية السياسية كما ينص عليه دستور لبنان الجديد، واعتبر الحزب أن هناك علاقة تبادلية ما بين المقاومة والوطن، بحيث أن المقاومة الموجهة سلاحها نحو التدخل الخارجي من جهة وضد التشرذم الداخلي من الجهة الأخرى هي الضمانة الأساسية لوطن لبناني قوي وقادر على أن يحمي جميع أبنائه على مختلف مشاربهم الفكرية ومذاهبهم الدينية.

- **العلاقة مع المسيحيين:** اعترض حزب الله في المرحلة الأولى بقوة على الخضوع لحكم المسيحيين، وأراد الحزب منع المسيحيين من المشاركة في الحكم بناءً على كونهم أهل ذمة تحق لهم الحريات الاجتماعية والدينية وليس السياسية، في حين تحول المسيحيون في المرحلة الجديدة بعد الطائف والتي لا زالت تتفاعل حتى اليوم إلى شركاء. وقد أدرج حزب الله في لوائحه الانتخابية مسيحيين ومن بينهم موارنة. ولعل مذكرة التفاهم التي وقعها حزب الله في العام ٢٠٠٦ مع التيار الوطني الحر بقيادة الجنرال والزعيم الماروني ميشيل عون هي أحد المؤشرات المركزية على تحول سياسة الحزب وخطابه نحو المسيحيين من خطاب حاد دينياً وعقائدياً إلى خطاب جامع ومنفتح قابل لأن يتقاسم السلطة معهم، أو بمعنى آخر تحول الخطاب من خطاب "جهادي" يقصي أبناء الوطن الواحد إلى خطاب "مقاوم" همه الأساس الانفتاح على أبناء الوطن ومشاركتهم في وجه العدو الخارجي.
- **اللبننة أو الانفتاح:** اعتبر الآغا أن حزب الله آمن في المراحل الأولى بتحرير لبنان من قيود المارونية السياسية والنظام السياسي الطائفي والمذهبي الذي يستند إلى قوانين وتشريعات وضعية مثل دساتير الدولة. في حين أصبح حزب الله في المراحل المتأخرة من تاريخه راضياً عن القوانين الوضعية، وساهم حتى في تشريعها من خلال نوابه في البرلمان.

يمكن بالإضافة إلى النقاط الواردة آنفا إضافة البعد الرمزي واستعمال الرموز المختلفة التي قام بها حزب الله، والتي أخذت في المرحلة الجديدة بالتحول إلى وطنية لبنانية أكثر وأكثر. فبدأ الحزب برفع الأعلام الوطنية اللبنانية في مناسباته الرسمية، وكذلك عزف النشيد الوطني اللبناني إلى جانب نشيد الحزب في النشاطات والاجتماعات الحزبية التي يقيمها. وتعتبر جميع هذه الرموز واستعمالها مؤشرات واضحة يقوم حزب الله بواسطتها بالتأكيد على وطنيته اللبنانية في حين أن هذا الأمر لا يمكن تخيله لدى الحركات "الجهادية".

ظهرت علامات التحول والانفتاح الإضافي الذي مارسه الحزب في مفاهيمه الوطنية جلياً في الوثيقة السياسية التي أصدرها في العام ٢٠٠٩، حيث يعتبر الحزب وتحت عنوان «الوطن» : «إنّ لبنان هو وطننا ووطن الآباء والأجداد، كما هو وطن الأبناء والأحفاد وكل الأجيال الآتية، وهو الوطن الذي قدّمنا من أجل سيادته وعزته وكرامته وتحرير أرضه أغلى التضحيات وأعزّ الشهداء. هذا الوطن نريده لكل اللبنانيين على حدّ سواء، يحتضنهم ويتسع لهم ويشمخ بهم وبعطاءاتهم.

"ونريده واحداً موحَّداً، أرضاً وشعباً ودولةً ومؤسسات، ونرفض أي شكل من أشكال التقسيم أو «الفدرلة» الصريحة أو المقنَّعة. ونريده سيداً حراً مستقلاً عزيزاً كريماً منيعاً قوياً قادراً، حاضراً في معادلات المنطقة، ومساهماً أساسياً في صنع الحاضر والمستقبل كما كان حاضراً دائماً في صنع التاريخ.

"ومن أهم الشروط لقيام وطن من هذا النوع واستمراره أن تكون له دولةٌ عادلةٌ وقادرةٌ وقويةٌ، ونظامٌ سياسيٌ يمثّل بحق إرادة الشعب وتطلعاته إلى العدالة والحرية والأمن والاستقرار والرفاه والكرامة، وهذا ما ينشده كل اللبنانيين ويعملون من أجل تحقيقه ونحن منهم".[٣]

تعتبر الوثيقة السياسية المذكورة تجليا واضحا لانتقال حزب الله من الفكر الجهادي الصرف، والذي يميز الحركات الجهادية التكفيرية، إلى إعلاء المقاومة والتشديد عليها قبل أي شيء آخر. كما تفتقد الوثيقة السياسية إلى الكثير من رؤاها الدينية الإسلامية التي كانت تميز أدبيات حزب الله في سنوات الحرب الأهلية، ويتطرق الحزب بوثيقته إلى «الشعب» ككل من دون تخصيص المسلمين دون غيرهم ومن دون شروط مسبقة.

كما يمكن التدليل على هذا التغيير من خلال مقارنة عدد المرات التي استعمل فيها الحزب مصطلحات المقاومة والجهاد في الوثيقة السياسية من العام ٢٠٠٩، في مقابل استعمال هذه المصطلحات في رسالته المفتوحة من العام ١٩٨٥. ففي حين ذكر الحزب المقاومة ١٧ مرة في الرسالة المفتوحة، ارتفع هذا الرقم في الوثيقة السياسية ليصل إلى ٥٢ مرة، وهبط استعماله للجهاد من ١٠ مرات في الرسالة المفتوحة إلى ٧ مرات فقط في الوثيقة السياسية.

استخلاص

لا شك أن المستفيد الأكبر مما يحدث في الدول المحيطة بإسرائيل على المدى القصير والمتوسط هي إسرائيل ذاتها، فالحرب الأهلية في سورية وإرهاصاتها في لبنان وفي مختلف دول الجوار تفتت الدول الوطنية حول إسرائيل، لتلهي القوى المختلفة داخل هذه البلدان بالصراعات الداخلية عن الصراع مع إسرائيل والهيمنة الإسرائيلية والغربية في المنطقة.

طفا في العقود الأخيرة على سطح المنطقة وهيمن على الخطاب السياسي فيها الخطاب الإسلامي للحركات الراديكالية، وكان من بين هذه الحركات من شدد على الجهاد وعلى تكفير كافة القوى التي لا تنضوي تحت لوائها الفكري والعقائدي، في حين كانت هناك قوى شددت على مفهوم المقاومة كمفهوم جامع لمختلف الفرق والحركات والمشارب الفاعلة في دول المنطقة ضد الاحتلال وضد التدخل الاستعماري الغربي.

قام المحللون الإسرائيليون لفترة طويلة بوضع جميع هذه الحركات في القالب الواحد ذاته. لكن في السنوات الأخيرة ومع تطورات «الربيع العربي» من جهة وملف النووي الإيراني من الجهة الأخرى والنجاحات التي يحققها تحالف إيران– سورية –حزب الله في المعارك في سورية، هناك محاولة إسرائيلية للمفاضلة بين القوى المختلفة الفاعلة على الساحة بهدف خلق تعاون وإن كان محدودا في النقاط التي تلتقي عندها مصالحها مع جزء من هذه القوى..

يبدو مما سبق أن إسرائيل ولاعتباراتها الخاصة تفضل على المدى القصير والمتوسط التعاون غير المعلن مع قوى «الجهاد» لما لدى هذه القوى من إمكانية لتفتيت الأبنية الوطنية القائمة حتى اليوم إلى دويلات وكنتونات تحت شعار إقامة الدولة الإسلامية الكبرى. هذا بالإضافة إلى مساعدة هذه القوى الجهادية لإسرائيل بتقليص الضغط العسكري والتوازن العسكري الذي تم بناؤه بينها وبين حزب الله بعد حرب تموز ٢٠٠٦.

لكن حتى الحركات الجهادية قد تتحول إذا ما توفرت الظروف السياسية المناسبة إلى حركات مقاومة تماما كما حدث مع حزب الله في لبنان وحركة حماس الفلسطينية (مع الاختلاف بين هذه الحركات)، إذ لا يمكن اعتبار أن هذه الحركات هي حركات جامدة وغير متأثرة بالتطورات السياسية والاجتماعية القائمة في مجتمعاتها وفي المنطقة، وقد تتحول قوى تعتبر اليوم قوى تعتمد على التصور الجهادي إلى حركات تعتمد الفكر المقاوم، وهو الأمر الذي يشكل تحديا أكبر للمؤسسة الأمنية الإسرائيلية.

الهوامش

١ الرسالة المفتوحة.

2 Eitan Azani. Hezbollah: The Story of the Party of God: From Revolution to institutionalization (New York: Palgrave Macmillan, 2009), 246

٣ عن موقع حزب الله: مقاومة http://www.moqawama.org/essaydetailsf.php?eid=16245&fid=47